كتاب عبدالله او ازمة الانسان المعاصر

بقلم الاب جورج انطونيوس اليسوعي

شهدت المكتبة العربية في السنين الأخيرة تحولا عميقاً اقتضته الحالة الراهنة في العالم العربي. فظهر الأدب الجاف الذهني لا يملأ القلب: من مذكرات سياسية او عرض عقائد الاحزاب ومناهجها التحررية، الى درس وتحليل قضية فلسطين ومستقبلها؛ حتى ان الشعر ذاته التزم بموضوع الصراع والنكسة. في هذا المناخ الخاص طلع علينا «كتاب عبدالله» لأنطون غطاس كرم؛ فاذا به لم يشذ عن اتجاهات التيار المهيمن على المنطقة؛ إلا انه تخطى الموضوع الواحد والبيئة الواحدة «ليعانق احزان الأرض واحلامها ويعبر عن قلق الانسان المعاصر وألمه لانهيار القيم وطغيان قوى الشر» على حد قول روز الغريب.

شخصية عبدالله

من يكون عبدالله؟ هل هو انسان الاسطورة او الرجل المثالي يجسم الافكار السامية؟

عبدالله هو انسان اللحم والدم؛ يعيش باحاسيسه المرهفة وبوجدانيته المتيقظة؛ يبحث عن مصيره، يتقراه في احداث ايامه؛ يتنبس ما تحمل اليه من غبطة. وعندما يسقط في مهاوي الانانية الضيقة؛ يعرف كيف لا يستسلم الى التحجر القتّال. ومع انه لم ينغلق في بقعة معينة، ولم يتمسك بثقافة محددة، ظلّ منتسباً الى الشرق والى ايامه المعاصرة.

مزاج عبدالله قريب من كل انسان يصبو الى الانعتاق. شخصيته لا تذوب في الآخرين، ماهيتها دوام التجدد في لقاء الوجود. مصيبة عبدالله الكبرى، هي عندما يعري الحقائق فيموت في داخله «هذا الذهول المتهلل

الذي به تتجدد نعمة البهجة في الأرض » . عندما يعثر على كل جواب فتزول الدهشة من فؤاده . ويحيا عبدالله عندما تعاوده « الدهشة البكر » ويصيب روحه ما يشبه البعث .

مصاحبة عبدالله تعني الانزلاق وراء انفعالات الفكر القلق المرتبط بالفعل الملموس وبالواقع اليومي الذي نصادفه على جوانب الدروب . فهو يعرف كيف يصغي الى نداء الآخرين ، ان يحدق في الوجوه . ان يتعدى الوقت فيقول الى رفيقه : (« ضاقت الجدران بي . وحنيني الى المدى يتجدد » . ثم نهض ، وفتح النافذة على الليل ، وجعل يتأمل .)

تطلعات عبدالله

بدأت مغامرة عبدالله بانفتاحه على العالم وعلى ثقافاته وكائناته حتى انه « كان اذا اصغى ادرك بالسمع الخفي تنفس الاعشاب ، وحركة الحياة السارية في نمو الوجود المتحول » ولقد وصل في نهاية مطافه الى حد فقدان عنصر المفاجأة ، وتسرب السأم اليه بعد ان « اعتدلت لديه المتناقضات » فتراجع والتجأ الى ذاته بعد ان « انفصل عن الجماهير واوصد بابه وحبس نفسه في عزلة دائرية داخلية » . وكأن ذاته تربعت على محور العالم فوجد فيها الوسيلة والغاية فكان يقول : « انا الشارب والساقي وانا الخسرة والنشوة » فكان « الصمت والغربة والعيش العاقر في انفراد الذات » .

يصل اليه « نداء المعذبين في الارض » وقضية انسان العصر غدت جنية بيضاء تلوح له بالامل : « تنشق الحياة وارصد تموجين حبات فؤادك » « اخرج من ذاتك الفقراء وتمتع بالسعي الخصيب الى سعادة الانسان » .

وينهض عبدالله بعد ان استرجع « نكهة الرؤيا العالمية » « فتقدس الفكر وانتبذ المطامع الداعرة : شهوة الكسب وشهوة السلطان » ولكن عبدالله يبقى انسان اللحم والدم ولا يشبه البتة الرجل المتفوق . فاذا به يحنين الى ماضيه الصغير الضيق « ولشد ما تمنى لو ظل في مناخه القديم » وانفصل عن جيله ونأى عن رتيبه سموم العصر » اذ ان دخوله العالم سيحمل اليه آلام البشرية ومتاعبها .

هو امام « الجندي المشرّم المتهوك في مستنقعات الملاريا وسنابل الارز المتلفة ، نبتت من نجيع خصره المفتوح حديقة ورد » .

هو امام الفقر في العالم : « في مخيمات اللاجئين . وفي ازقة نابولي القديمة ، رأيت الصغار على الدروب الغبراء ؛ والدروب تنسل انسلال الافاعي : رأيت الصغار ينبشون المزابل ؛ ويدمي الجائع الجائع من اجل كسرة خبز » .

هو امام الصراع العنصري : « رأيت (الاسود) بالأمس تغتاله المدينة المجنونة ويراق الارجوان على الدمع ويغور في صلصالة الارض صوته ودمه » .

« وتئن الارض تحترق بالمطامع تتصوّر في مجاعتها الروحية فوق مجاعتها الدنيوية » وهكذا « تضعضعت لديه اقيسة المنطق » .

وفي ظلام العالم يعود عبدالله الى الطفولة وذكراها . فيستقرئ « في نظرات الاطفال . في عيونهم الباكية . الضاحكة ؛ الخائفة . اللهيفة ؛ المتعجبة ؛ نقاء الأساطير التي ضيعها البشر » .

الكلمة في خدمة الذوق

ميزة كتاب عبدالله الرئيسية . هو انه مبني على الذوق . وانه يتوجه الى الانسان بأكمله : فيطرب سمعه ؛ ويوقف نظره ؛ ويشغل فكره . الجديد فيه : هو التضامن التام بين الاسلوب والمحتوى . فالكلمة والعبارة والصفحة والفصل من الكتاب . اجواء رحبة تسبح فيها الفكرة العاتية . فيظفر الانسجام ويظهر عنفوان المضمون على كلمات استحالت اداة انفعال .

يهمس عبدالله همساً . لكنه كصاحب وجدان يتكلم الى القلب : فيستحيل كلامه شعراً : « رأيت الايدي الصغيرة الجائعة تفتح ازاهر بيلسان . رأيت في مآقي الاطفال لآلئ تكسر فيها وجه القمر » .

وتظهر الرمزية النقية بتعابير غنية المغزى . عذبة الوقع ؛ فريدة في رونقها فنسمع « بالمعارج اللولبية » . « اللحظة المتشعبة » . « الدهشة البكر » . « اليأس المصفى بالتصوف » . وما هذه الكلمات الا صورة لعملية التكثيف المتغلغلة في طيات الكتاب .

ان اسلوب انطون غطاس كرم جاء تعزية للقارئ العربي الذي ارتوى في ايامنا هذه من النثر المتفلسف او المتحزب المعتمد على الخطابة . ولقد اعاد الى اللغة العربية منطق الروح ومنطق الجمال والابداع .

عبدالله ابن العصر

قوة عبدالله تكمن في بساطته : فهو لم يترفع عن المجتمع ليعالج بعض النظريات فيدعمها بالعقائد الثابتة وبالمناهج التقليدية . فضيلة عبدالله انه ينطلق من التاريخ وتاريخ بشرية اليوم . واذا ابتغى الشمول ، جاء ذلك طبيعياً دون تكلف او مغالاة . عبدالله يعيش عصره ، ويتقبل تياراتـــه ومشاغله . فينقلنا الى صميم العالم والى همومه بتلميحات واشارات خاطفة لكنها جلية .

عبدالله يفتش عن حريته ، ولا يطمس كيانه حياء . بل يتكلم بطلاقة عن ذاته . وهو يعي حال امته ، وحال من حوله من الشعوب المغسولة الدماغ . يثور على طقوس الدين ، فيقدس الى حين العلمانية . الى ان يشاهدها « تمتطي ظهر الشيطان » وعندما ينظر الى العالم يرمق التخلف والفقر المتفشي بين الامم . ويصغي الى احتضار العدالة والصراع الدموي بين البشر . وتوق الانسان الى السلام المرتجى . فتظهر له بابل فاقدة الخير والحب . منقطعة عن الحوار مع ذاتها ومع ربها . ولا ينسى عبدالله غيب الجنس ودور الهيروين . وفي كل ذلك لا يحيد عن مجتمعه وعن انسانيته المتحفزة للتجديد وللافضل . فلا ينقاد الى الافكار المسبقة . انما يستسلم الى الاقرب من وجدانه . يعاوده وجه امه وهي على فراش الموت فيسترجع غبطة الطفولة ويصعد الى ربه صلاة : « اغسلني بنور الرجاء فتعود الي حلاوة الانتظار وربيع المفاجأة » .